الشـــعر

محاضرة للشاعر الكبير « بول فاليرى »

عضـــو المجمع الفرنسى

مترجمة بقلم الأديب عبد الرحمن صدقى

منذ أسابيع عرض الدكتور طه حسين على صفحات هذه المجلة لرأى « فاليرى » فى الشعر ، ومنذ أسبوع حاضر فيه جمهرة حاشدة من سامعيه ، ونحن نتهز هذه المناسبة لترجمة محاضرة الشاعر نفسه عن الموضوع نفسه إتماماً للفائدة . ولما كان موضوع البحث دقيقاً فقد حرصنا على دقة الأصل . ولم نستحل لأنفسنا — بحجة التوضيح والتبيين — تحريف الكلم أو الإضافة إليه أو الاقتضاب منه . ويعذرنا القراء اذا نحن أرجأنا أيضاً بالتعليق فى مطالعته واكتفاء مرايه .

« المترجم »

جئنا اليوم نحدثكم عن الشعر فهو موضوع العصر . ويعجب أن عصراً يجمع بين العمل واللهو المسرف معاً ـ وقد بعد بعيداً عن سبحات التفكير والتأمل النظرى عامة ـ يهتم هذا الاهتمام كله بالشعر ، ولا يقف عند الشعر ذاته ، بل يتعدى اهتمامه أيضاً الى نظرية الشعر .

اذن : أستبيح لنفسى اليوم أن سبح قليلا فى النظر التجريدى ، وعذرى أنى بهذه السبيل أستطيع الايجاز فى القول .

وانا مقترح عليكم فكرة عن الشعر ، ونيتى بحمعة على ألا أذكر غير ما كان من قبيل المقررات البحتة ، وما كان فى امكان الناس أجمعين أن يلحظوه فى أنفسهم أو بأنفسهم أو على الاقل يجدونه باستدلال هين ميسور .

وسأبدأ من البداية . والبداية — فى هذا المعرض من الآراء فى الشعر — هى بالضرورة تناول هذا الاسم نفسه بالنظر . كما يجرى على الالسنة فى الكلام المعتاد

كلمة الشعر

تعرف لهذه الكلمة مدلولين ، أعنى وظيفتين بينهما فرق بعيد . فهى تعنى أولا نمطاً من الخواص النفسية ، أو حالة عاطفية خاصة تبرها أشياء شتى أو ظروف جد مختلفات

فنحن نقول عن منظر من المناظر الطبيعية أنه شعرى . ونحن نقولها عن طور من أطوار الحياة . وأحيانا نقولها عن شخص

ولكن هناك محلا آخر لهذا اللفظ ومدلولا ثانيا هو أخص من الاول . والشعر على هذا الوجه الثانى يذهب باذهاننا الى احد النفوس ، الى صناعة عجيبة غرضها أن تعيد كرة اخرى إنشاء هذه العاطفة التى يدل عليها الوجه الاول للفظ

فاستعادة العاطفة الشعرية عند القصد وبواسطة اقانين اللغة دون الظروف الطبيعية التى تولدت فيها عفوا ، هو هو مطلب الشاعر ، وهو هو الفكرة المقترنة بكلمة « الشعر » فى مفهومه الثانى ، وفيما بين هذا التصور وذاك يوجد من العلائق والفروق مثل ما بين أرج الزهرة وبين عملية الكيميائى العاكف على تأليف العطر من كافة الاجزاء .

على ان الناس يخلطون فى كل لحظة بين هاتين الفكرتين ، فتنجم من ذلك طائفة من الاحكام والنظريات فضلا عن المصنفات . فاسدة فى أساسها لأطلاقها كلمة واحدة على شيئين هما على ارتباطهما جد مختلفين

العاطفة الشعرية

ولنجعل أول كلامنا عن العاطفة الشعرية ! أى عن الحالة العاطفية الاصليـــة

تعرفون ما يخالج معظم الناس من شعور يتفاوت قوة وضعفا . بين يدى مشهد طبيعى رائع ، فمناظر الغروب ، والليالى القمراء ، والاحراج الشجراء ، والبحر ، تطربنا وتحرك عواطفنا . وعظائم الاحداث وأزمات الحياة النفسانية ، وأشجان الحب ، وتذكر الموت كلها مناسبات أو أسباب مباشرة لما يقع فى الوجدان من تجاوب واصداء داوية ، بالغة فى الشدة أو غير بالغة ، قوية التنغم أو ضعيفته

وهذا اللون من خوالج الانسان يتميز من سائر خوالجه الاخرى فبم يتميز ؟ ذلكم ما يعنينا بحثه فى مطلب اليوم ، فيهمنا أن نقابل بكل ما يستطاع من الوضوح بين العاطفة الشعرية والعاطفة العادية ، والتفريق بين هذين عمل جد دقيق . اذ هما لم ينفصلا قط فى الحياة الواقعـــة . فنجد الانفعال الشعرى الأصلى مشوباً على الدوام بالحنو أو الاسى ، بالغيظ أو الوجل أو الامل ، ولا تبرح مصالح الشخص وعلائقه الخاصة متحدة بهذا « الاحساس بالكون » الذى يتميز به الشعر

الاحساس بالكون

قلت « الاحساس بالكون » وأعنى أن الحالة أو العاطفة الشعرية توامها — فيما أرى — احساس ناشئ متولد ، أو بعبارة أخرى ، ميل الى الاحساس « بعالم » أو نظام مستكمل من النسب ، ذواته وكائناته ، وحوادثه وفعاله ، وان شاءت واحدة واحدة ما يعمر به عالم الحس ويتألف منه وهو العالم المباشر الذى هى مستعارة منه إلا أنها ذات صلة محكمة لا يحـــدها الوصف باساليب حساسيتنا العامة وتواميسها . ومن ثم فهذه الذوات وهذه الكائنات المعهودة تتغير قيمها ومعانيها بوجه من الوجوه . فهى تتـــداعى وتتوارد ويلابس بعضها البعض على وجه يخالف كل المخالفة ما يجرى فى الاحوال العادية . فاذا هى « مدوزنة » ان جاز لى هذا التعبير ، واذا هى قد أصبحت متناسبة القياس متجاوبة .

وعالم الشعر بهذا الوصف فيه مشابه كبيرة بعالم الحلم

صورة الشعر والحلم

وإذ تطرقت كلمة « الحلم » الى مقالى ، فانى أذكر لكم فى كلمة عابرة انه فى العصور المتأخرة من عهد مذهب المجازيين فى الكتابة (Romantisme) حدث خلط جل خطبه وان هان تفسيره بين تصور الناس للشعر وتصورهم للحلم ! فليست الاحلام والحالة النفس الحالمة شعرية بالضرورة . وهى قد تكون كذلك . ولكن صوراً تكونت بالمصادفة لا يمكن أن تكون صوراً ذات سياق وانسجام الا بالمصادفة .

بيد أن « الحلم » لشيوع معالجتنا له وتكرارها يساعد على تفهيمنا كيف أن الوجدان يمكن أن تطغى عليه وتفعمه وتجيله مجموعة من شتى ما تحدثه الانفعالات والمدركات العادية . فهو يضرب لنا مثلا متعارفاً عن « عالم محصور » تتراءى فيه سائر الاشياء الواقعة وتشكل بتشكل حساسيتنا العميقة ، وعلى هذا النحو تقريباً تستقر الحالة الشعرية فى أنفسنا وتنمو وتتحلل ، أى أنها لا تجرى بالضبط على قياس ، وانها متقلبة وغير اختيارية وسريعة العطب . وانا نفقدها كما نحصل عليها عرضا . وفى حياتنا فترات لا ينجلى فيها هذا الاحساس الشعرى ، ولا تتبدى فيها هذه التوليفات المحببة ، بل لا يخطر لنا امكانها فى بال ، فالصدفة تهبنا إياها والصدفة تستردها منا

الخلود رسالة الفن

ولما كان الانسان انسانا بما له من عزيمة وقدرة على استنقاذ مايهمه من حكم العفاء الجارى على الاشياء ، واحتفاظه بما ينقذ واصلاح حاله واقامة صرحه ، فقد صنع الانسان لهذه العاطفة الرفيعة ما صنعه أو عالج صنعه لسائر الاشياء التى يدركها الزوال مأسوفاً عليها . فبحث واهتدى الى الوسائل التى يثبت بها ويستحيى بسرها كيف شاء أجل اطواره النفسية وأصفاها ، والتى يستطيع بواسطتها ان يعرض وينقل ويصون على تطاول الحقب أنماط أريحيته وهيامه وجيشان وجدانه . ثم كان من حسن العقبى أن اختراع وسائل البقاء هذه أتاح للانسان الفكرة والقدرة معاً على تعهد ماتمخض به سليقته عليه أحياناً من قطع الحياة الشعرية بما ينميها اصطناعيا ويزيد فى زينها وغناها . فتعلم ان ينتشل من مجرى الزمن وان يستخلص من الظروف هذه التواليف وهذه المدركات العجيبة العارضة التى قد كانت ذاهبة بلا رجعى لولم يبادر فينا الكائن المتفنن الأريب الى معونة الكائن الوقتى ويسعف بمخترعاته النفس المحة .

ولقد نشأت الفنون طراً لكيما تخلد أو تبدل — كل فن بحسب جوهره — لحظة من لحظات النعيم الزائل الى حقيقة راسخة من لحظات ممتعة لا انتهاء لها . فالعمل الفنى ليس الا أداة مادية لهذا الاكثار أو التوليد المستطاع .

اللغة

والموسيقى والتصوير والعمارة أساليب شتى تتناسب مع اختلاف المعانى . وهى كلها وسائل لانشاء عالم شعرى أو لاعادة إنشائه ، وهى تهيؤه بحسن التنظيم للبقاء ، وتفسح بالعمل المدبر نطاقه وتوسع رحابه . إلا ان أقدم هذه الوسائل وأقربها مساساً وإن تلك أشدها تعقدا هى اللغة . ولكن اللغة ، بسبب طبيعتها المجردة وتأثيرها على الاخص فى الفكر — تأثيرا غير مباشر ، وبسبب نشأتها الاولى ووظائفها فى الشئون العملية ، تورد الفنان الذى يمارس تنسيقها وصرفها الى الشعر مورداً معقداً عجيب التعقيد

وما كان يكون فى الدنيا شعراء لو أن الانسان تمثل فى وعيه المشكلات المطلوب حلها . (وما كان انسان يستطيع تعلم المشى لو استلزم المشى منه أن يتمثل ويستحضر فى خاطره صوراً واضحة لجميع العناصر فى أقل خطوة من خطاه)

ولسنا هنا — بحمد الله — فى مقام عرض الشعر ، بل نحن انما نعالج النظر فى الاشعار كأنها شىء مستحيل صنعه ، وذلك لكى نكبر جهود الشعراء الكبارا صافيا مبينا ، ولكى ندرك مبلغ اقدامهم وكدهم وركوبهم الصعاب ، ونتصور فضائلهم ونجب فلا نقضى العجب من قوة فطرتهم .

(البقية على صفحة ٣٤)